مذبحة فاسي ودور الملكة كاثرين دي ميديتشي فيها عام ١٥٦٢

م.د. ماجد عجيمي سليم
جامعة سامراء/كلية التربية للعلوم الإنسانية

السنة الثالثة شعبان ١٤٤٦هـ شباط ٢٠٢٦م

المستخلص:

تتناول هذه الدراسة أحداث مذبحة فاسي عام ١٥٦٢ باعتبارها النقطة الحرجة التي قوضت جهود الاستقرار في فرنسا، مع التركيز بشكل خاص على السياسة المعقدة للملكة كاثرين دي ميديتشي. يتتبع البحث محاولات كاثرين الحثيثة لفرض سياسة «التسامح المشروط» عبر التشريعات القانونية، وكيف أجهض الهجوم الذي قاده دوق غيز طموحاتها في تحييد الصراع بين الكاثوليك والهوغونوت، كما يحلل البحث إشكالية موقفها بين الحفاظ على شرعية العرش وبين ضغوط القوى الأرستقراطية المتشددة، مبرزاً كيف أدت هذه المذبحة إلى تحول دورها من «راعية للسلام» إلى إدارة أزمات الحروب الأهلية الطويلة.

الكلمات المفتاحية: فاسي، مذبحة، ميديتشي، الهوغونوت، الحروب الدينية.

Abstract:

This study investigates the Massacre of Wassy (1562) as the critical flash-point that ignited the French Wars of Religion, focusing specifically on the complex political maneuvers of Queen Catherine de› Medici. The research tracks Catherine's persistent efforts to implement a policy of «conditional tolerance» through legal decrees, and how the assault led by the Duke of Guise derailed her ambitions to neutralize the conflict between Catholics and Huguenots. It further analyzes her precarious position between maintaining royal legitimacy and yielding to the pressures of radical aristocratic factions, highlighting how this massacre forced her transition from a «peacemaker» to a crisis manager in a prolonged civil war.

Keywords: Vassi, massacre, Medici, Huguenots, religious wars.

المقدمة:

تُعد مذبحة فاسي (Wassy) في ١ مارس ١٥٦٢ نقطة تحول مركزية في التاريخ الفرنسي، إذ مثّلت الشرارة التي أشعلت فتيل الحرب الدينية الأولى بين الكاثوليك والهوجوينوت (البروتستانت) ففي ذلك اليوم، داهم فرانسوا، دوق غيز، مع قواته مكان عبادة للهوجوينوت في قرية فاسي، ما أسفر عن مقتل العشرات وإصابة المئات من البروتستانت غير المسلحين. وقد ساهم هذا الاعتداء في تصاعد حدة التوتر بين الطائفتين وخلق مناخٍ من العنف والانتقام المتبادل. ولم تكن المذبحة حادثةً معزولة، بل جاءت نتيجة تراكم طويل من الاحتقان السياسي والعقائدي الذي شهدته فرنسا منذ انتشار الحركة الإصلاحية البروتستانتية في أوروبا وتمثّل هذه الحادثة علامة فارقة في مسار التاريخ الفرنسي الحديث، إذ كشفت عن ضعف السلطة الملكية في كبح نفوذ النبلاء المحليين، وهو ما كان له أثر مباشر في رسم سياسات كاثرين دي ميديتشي اللاحقة.

مشكلة البحث:

على الرغم من أهمية مذبحة فاسي بوصفها الحدث الذي فجّر الحروب الدينية الفرنسية، إلا أنّ مدى تشابك أبعادها السياسية والدينية، وطبيعة الدور الذي لعبته كاثرين دي ميديتشي في محاولات احتواء الأزمة، لا يزال موضع جدل بين الباحثين. وتتمثل مشكلة البحث في عدم وضوح الصورة الكاملة للعوامل التي أدّت إلى تفاقم النزاع، وكيفية تحوّل الحادثة من صدام محدود إلى حرب أهلية واسعة النطاق.

هدف البحث:

يهدف هذا البحث إلى تحليل مذبحة فاسي تحليلًا شاملًا من خلال:

١. تحديد العوامل السياسية والدينية التي أدّت إلى وقوع المذبحة وتصاعد الصراع بعدها.

٢. دراسة موقف كاثرين دي ميديتشي ودورها في إدارة الأزمة ومحاولتها التوفيق بين الطوائف.

٣. تبيان الآثار الاجتماعية والسياسية التي خلّفتها المذبحة على المجتمع الفرنسي ومسار الحروب الدينية اللاحقة.

إشكالية البحث:

تتمحور إشكالية البحث حول التساؤل الرئيس الآتي:

كيف أدّت مذبحة فاسي سنة ١٥٦٢ إلى تفجّر الحرب الدينية الأولى في فرنسا، وما طبيعة التداخل بين العوامل السياسية والدينية والاجتماعية التي مهدت لها، وكيف انعكس ذلك على سياسات كاثرين دي ميديتشي ومسار الصراع بين الكاثوليك والهوجوينوت؟

أسئلة البحث:

١. ما الظروف الدينية والسياسية التي سبقت مذبحة فاسي؟

٢. ما العوامل المباشرة وغير المباشرة التي أدّت إلى وقوع المذبحة؟

٣. ما دور دوق غيز في تصعيد الصراع؟

٤. كيف تعاملت كاثرين دي ميديتشي مع الأزمة، وما حدود قدرتها على ضبط الموقف؟

٥. ما النتائج قصيرة وبعيدة المدى التي ترتبت على المذبحة في المجتمع الفرنسي؟

٦. كيف أسهمت المذبحة في اندلا ع الحرب الدينية الأولى؟

أهمية البحث:

تنبع أهمية هذا البحث من:

١. تحليل أحد أبرز الأحداث التأسيسية في تاريخ فرنسا الحديث.

٢. محاولة كشف التفاعل بين الدين والسياسة في فترة مفصلية أدت إلى سلسلة من الحروب الدينية.

٣. تقييم دور كاثرين دي ميديتشي من منظور موضوعي بعيد عن الانحيازات التقليدية.

٤. إغناء المكتبة العربية بدراسة معمّقة حول موضوع نادر التناول.

هيكل البحث: تضمن البحث ما يلي:

المحور الأول: الخلفية الدينية والسياسية في فرنسا قبل عام ١٥٦٢

أولًا: انتشار البروتستانتية والتوتر الطائفي

ثانيا: الأوضاع السياسية ودور كاثرين دي ميديتشي قبل عام ١٥٦٢

المحور الثاني: مذبحة فاسي ١ مارس ١٥٦٢ وآثارها

أولا: وقائع المذبحة

ثانيا: آثار المذبحة على الطائفتين

المحور الثالث: دور كاثرين دي ميديتشي في المذبحة وما بعدها

المحور الأول: الخلفية الدينية والسياسية في فرنسا قبل عام ١٥٦٢

أولًا: انتشار البروتستانتية والتوتر الطائفي

بدأت حركة الإصلاح الديني عندما علّق مارتن لوثر(Martin Luther) (راهب وأستاذ لاهوت ألماني، فجر الإصلاح البروتستانتي عام ١٥١٧ باحتجاجه على ممارسات الكنيسة الكاثوليكية، ودعا إلى أن الخلاص يكون بالإيمان وحده وبالكتاب المقدس كمرجع وحيد. ينظر: (ميلر، ٢٠٠٤، ص٢١٢)) اعتراضاته الـ٩٥ على كنيسة ويتنبرغ كنيسة ويتنبرغ (Wittenberg Church) (هي كنيسة القلعة في ألمانيا التي علق على بابها مارتن لوثر رسالته الشهيرة «٩٥ قضية» في ٣١ أكتوبر ١٥١٧، لتصبح بذلك نقطة الانطلاق الرسمية لحركة الإصلاح الديني في أوروبا. ينظر: (فيشر، ١٩٩٢، ص١٠٨)) احتجاجًا على بيع صكوك الغفران (Indulgences) (وثائق كانت تبيعها الكنيسة الكاثوليكية للمؤمنين مقابل مبالغ مالية، بزعم أنها تمنح الغفران عن الخطايا وتخفف العقاب في المطهر، وكانت الدافع الرئيس لاحتجاج لوثر. ينظر: (كوبر، ١٩٩٨، ص٥٤))، ما فجّر مواجهة مباشرة مع الكنيسة الكاثوليكية وأدى إلى انقسام ديني واسع(MacCulloch, ٢٠٠٣, pp. ٩٧–١٠٢, Cameron, ٢٠١٢, pp. ٤٥–٥١)، انتشرت البروتستانتية بفضل دور الطباعة التي نشرت كتابات لوثر، والدعم السياسي من أمراء ألمانيا الرافضين لسلطة البابوية، إضافة إلى الرغبة في التحرّر من الهيمنة الكنسية وإفساح المجال لتفسير النصوص الدينية مباشرةBainton, ١٩٥٠, pp. ١٨٢–١٩٠)؛ عوض، ٢٠٠٠، ص ١١٢–١١٨)، يعود اتّساع انتشار البروتستانتية في ألمانيا وسويسرا والدول الإسكندنافية وإنجلترا بفضل نشاط زوينجلي(Huldrych Zwingli) (قائد حركة الإصلاح الديني في سويسرا، عاصر لوثر واختلف معه في مسألة العشاء الرباني، إذ اعتبره رمزاً تذكارياً فقط، وقد قُتل في معركة كابل أثناء الصراعات الدينية. ينظر: (برنتون، ١٩٨٤، ص١١٨)) وكالفن (John Calvin) (مصلح ديني فرنسي أسس مذهباً بروتستانتياً في جنيف، تميز بصرامته الأخلاقية وإيمانه بنظرية «القدر المحتوم»، وكان له أثر عميق في تشكيل الفكر السياسي والاقتصادي الغربي. ينظر: (زيتون، ١٩٨٢، ص١٤٢))، إذ أصبحت جنيف مركزًا قويًا للإصلاح الكالفني (Cameron, ٢٠١٢, pp. ١٢٠–١٣٥؛ حمدان، ٢٠١٤، ص ٨٩–٩٥).

أدت الخلافات المذهبية إلى اندلا ع حرب الفلاحين ثم حرب الثلاثين(Thirty Years› War) (سلسلة من الصراعات الدامية في أوروبا الوسطى (١٦١٨–١٦٤٨) بدأت كخلاف بين الكاثوليك والبروتستانت وتطورت لصراع سياسي دولي، انتهت بصلح وستفاليا. ينظر: (السعدون، ٢٠٠٩، ص٨٨)) عامًا التي دمّرت وسط أوروبا وأصبحت من أكثر الحروب دموية في التاريخ الأوروبي (MacCulloch, ٢٠٠٣, pp. ٤١٠–٤٢٥؛ Dixon, ٢٠١٧, pp. ٢٤٨–٢٥٥)، فقد شهدت فرنسا سلسلة من الحروب بين الكاثوليك والهوغونوت الهوغونوت(Huguenots) (لقب أطلق على البروتستانت الفرنسيين الذين اتبعوا المذهب الكالفيني، وعانوا من اضطهاد شديد من قبل الملكية الكاثوليكية، مما أدى لنشوب الحروب الدينية في فرنسا. ينظر: (نوار، ١٩٩٩، ص٢١٥))، بلغت ذروتها في مذبحة سانت برتلمي(St. Bartholomew›s Day Massacre) (مذبحة دموية وقعت في باريس عام ١٥٧٢ استهدفت قادة الهوغونوت خلال احتفالات زفاف ملكي، وأدت لمقتل الآلاف وامتدت لتشمل أقاليم فرنسية أخرى. ينظر(العلي، ٢٠٠١، ص١٨٩)) التي قُتل فيها آلاف البروتستانت (Holt, ٢٠٠٥, pp. ٥٧–٦٣ ؛ Cameron, ٢٠١٢, pp. ٢١٠–٢١٤)، أدّى الإصلاح الإنجليزي في عهد هنري الثامن (Henry VIII) (ملك إنجلترا الذي انفصل عن الكنيسة الكاثوليكية وأسس الكنيسة الأنجليكانية بعد رفض البابا إلغاء زواجه، وأعلن نفسه «الرئيس الأعلى للكنيسة في إنجلترا. ينظر: (مورتون، ١٩٧٠، ص١٣٢))

ثم إليزابيث الأولى(Elizabeth I) (ابنة هنري الثامن، حكمت إنجلترا في عصرها الذهبي، ثبتت المذهب الأنجليكاني كدين للدولة، وهزمت الأرمادا الإسبانية، وحولت إنجلترا إلى قوة بحرية كبرى. ينظر: (ماورو، ١٩٦٦، ص٢٤٥)) إلى صدام طويل مع الكاثوليك، وبلغ الصراع ذروته في الثورة المجيدة ١٦٨٨(Glorious Revolution) (انقلاب أبيض في إنجلترا أطاح بالملك جيمس الثاني الكاثوليكي واستبدله بويليام أورانج، وأدت لصدور إعلان الحقوق الذي قيد سلطات الملك وعزز دور البرلمان. ينظر: (محمود، ٢٠٠٥، ص١٧٤))، وحروب إنجلترا مع إيرلندا(MacCulloch, ٢٠٠٣, pp. ٥٣٠–٥٤٠؛Walsham, ٢٠٠٦, pp. ٥٠٣–٥٠٧ ؛ حمدان، ٢٠١٤، ص ١٥٧–١٦٣).

أدى هذا إلى تصاعد التوتر مع السلطة الكاثوليكية التقليدية، إذ بدأ الهوجوينوت، وهم البروتستانت الفرنسيون، في تشكيل مجتمعات منظمة ومؤثرة اجتماعيًا وسياسيًا في المدن الكبرى والمناطق الريفية على حد سواء. تسبب هذا في انقسامات اجتماعية حادة بين الطائفتين، إذ واجهت القرى الفرنسية صراعات متكررة بين سكانها البروتستانت والنبلاء الكاثوليك المسيطرين على الأراضي، مما أدى إلى سلسلة من الاشتباكات الصغيرة التي شكلت تمهيدًا لاندلا ع أحداث أكبر مثل مذبحة فاسي، وتشير الدراسات العربية إلى أن توسع البروتستانتية في فرنسا لم يكن مجرد ظاهرة دينية، بل كان له تأثير سياسي واجتماعي واضح، إذ أعاد رسم خريطة السلطة المحلية وأثار قلق الكاثوليك من فقدان السيطرة على المجتمعKnecht, ٢٠٠٢, p.٣٣-٣٧; Holt, ١٩٩٥, p.٥٠-٥٣ الجزيرة نت، ٢٠٢٢، ص٥–٧(، كما يرى الباحثون أن التوتر الطائفي كان مرتبطًا بظهور نخب محلية جديدة تعارض السلطة المركزية، الأمر الذي زاد من هشاشة الوضع السياسي قبل ١٥٦٢ (مطر، ٢٠١٧، ص ١٢–١٤).

ثانياً: الأوضاع السياسية ودور كاثرين دي ميديتشي قبل عام ١٥٦٢

بعد وفاة الملك هنري الثاني(Henry II of France) (ملك فرنسا الذي استمر في سياسة والده فرانسوا الأول في تقوية السلطة الملكية، واشتهر باضطهاده الشديد للهوغونوت قبل وفاته المفاجئة في حادث مبارزة. ينظر: (الطيبي، ٢٠١١، ص٤٢)) في ١٥٥٩، تولت كاترين دي ميديتشي(Catherine de› Medici) (زوجة هنري الثاني ووالدة ثلاثة ملوك فرنسيين، لعبت دوراً محورياً كوصية على العرش، وتعتبر الشخصية الأكثر إثارة للجدل في تخطيط مذبحة سانت برتلمي. ينظر: (ستروميرج، ١٩٩٤، ص٩٢)) شؤون المملكة بصفتها وصية على أبنائها القاصرين. واجهت كاثرين مهمة صعبة للغاية، إذ كان عليها التوفيق بين المصا لح المتعارضة للكاثوليك المتشددين والهوجوينوت الذين طالبوا بحرية دينية أوسع، في هذا السياق، أصدرت مرسوم يناير ١٥٦٢ الذي منح بعض الحقوق المحدودة للهوجوينوت، مثل حرية الصلاة خارج المدن الكبرى، بينما حافظ على سلطة الكاثوليك في المراكز الحضرية. ومع ذلك، لم يتم تطبيق المرسوم بشكل كامل على أرض الواقع، إذ واجهت الملكة مقاومة شديدة من نبلاء الكاثوليك، مثل دوق غيز، الذين اعتبروا أي تنازل للهوجوينوت تهديدًا لسلطتهم ونفوذهم الإقليمي Benedict, ٢٠٢٤, p. ١٨–٢٠; Deng, ٢٠٢٤, p.١٨–٢٠)؛ الشليح،، ٢٠١٩، ص. ٣٥–٣٨) ساهمت هذه السياسة الوسطية في خلق أجواء من الغموض والارتباك بين الطوائف، إذ لم يعرف الهوجوينوت حدود حقوقهم بدقة، ولم يلتزم الكاثوليك بالتعليمات الملكية، ما أدى إلى توتر إضافي زاد من احتمالية انفجار النزاع في أي لحظة، أظهرت هذه المرحلة ضعف القدرة المركزية للملك في مواجهة نفوذ النبلاء المحليين، وهو عامل أساسي في تفسير اندلا ع مذبحة فاسي لاحقًا.

المحور الثاني: مذبحة فاسي ١ مارس ١٥٦٢ وآثارها

أولا: وقائع المذبحة

في صباح ١ مارس ١٥٦٢ كان فرنسوا دوق غيز، زعيم الحزب الكاثوليكي المتشدد، متوجهاً من قصره نحو باريس،

وأثناء مروره بقرية فاسي في إقليم شامبانيا الفرنسية (دونيلي، ٢٠٢٥، ص٩٣)، سمع أصوات تراتيل دينية تصدر من مبنى كبير يتجمع فيها المئات من البروتستانت لأداء الصلاة، كان داخل المبنى ما يقارب نحو ٢٠٠–٣٠٠ شخص من الرجال والنساء والأطفال يؤدون شعائرهم الدينية تحت إشراف قس بروتستانتي(فولتير، ٢٠٠٩، ص٢٧)، وكانت الترانيم تتردد بصوت مرتفع حتى خارج القاعة، اعتبر الدوق وحاشيته هذا التجمع استفزازاً صريحاً وخرقاً للتقاليد الكاثوليكية ما أثار غضب رجال غيز الذين رأوا في ذلك تحديًا لمكانتهم الدينية والسياسية (يحيى، ١٩٨١، ص١١٨–١١٩ ؛ السنوسي، ٢٠١٣، ص٧–٨؛ Cameron, ٢٠١٢, p. ٢١٢–٢١٣).

تقدّم رجال غيز إلى باب المبنى وطلبوا من القس والهوغونوت فضّ الاجتماع فورًا بحجة أنه غير قانوني، فرفض القس استجابة للطلب وأصرّ على استمرار الصلاة، بينما تجمع المصلون عند المدخل وبعضهم حاول الدفاع عن القاعة (Jouanna, ٢٠١٣, pp. ٣٢–٣٣) تصارعت الروايات حول اللحظة الأولى للعنف؛ فالمصادر الكاثوليكية تقول إن أحد الجنود تعرّض لرشق حجارة من الداخل، بينما المصادر البروتستانتية تؤكد أن إطلاق السهم الأول كان من جانب الحرس (يحيى، ١٩٨١، ص١١٨؛ Benedict, ١٩٩١, p. ٤٤).

تحوّل الاحتكاك بسرعة إلى هجوم مسلّح، إذ أطلق الجنود النار من بنادق الأركويبوس (Arquebus) (أول نوع من البنادق اليدوية الطويلة التي استخدمت على نطاق واسع في الحروب الأوروبية في القرن السادس عشر، مما غير تكتيكات القتال وأضعف دور الفرسان التقليدي. ينظر: (كين، ٢٠٠٧، ص٢١٠)) على المصلين، ثم اقتحموا المبنى وضربوا الحاضرين بالسيوف والعصي، ما أدّى إلى حالة فوضى هلع شديد داخل المكان الضيق (Salmon, ١٩٧٥, p. ١٤٩) استمر الهجوم لبضع دقائق، لكنه أسفر عن قتل ما بين ٣٠–٥٠ شخصًا من الهوغونوت وإصابة أكثر من ٢٠٠ شخص بجروح متفاوتة، بينهم نساء وأطفال (Holt, ٢٠٠٥, p. ٥٨ ; Cameron, ٢٠١٢, p. ٢١٣).

بعد انتهاء الهجوم وقف دوق غيز عند مدخل المبنى، مدّعيًا لاحقًا أنه لم يأمر بالقتل وأن رجاله تصرفوا دفاعًا عن أنفسهم، بينما رأى البروتستانت أن الهجوم كان متعمدًا لإظهار القوة الكاثوليكية في المنطقة(Jouanna, ٢٠١٣, pp. ٣٣–٣٤) ، انتشر خبر المذبحة سريعًا في المناطق المجاورة، ونُقلت جثث الضحايا إلى المنازل والكنائس، فيما حاول الأهالي نقل الجرحى لتلقي العلاج، ليظل يوم ١ مارس ١٥٦٢ محفورًا في الذاكرة الفرنسية كبداية العنف الطائفي المفتوح في صراعات فرنسا بين الكاثوليك والهوغونوت (Salmon, ١٩٧٥, p. ١٥٠)، وبذلك، تحولت المذبحة إلى الفتيل الذي أشعل الحروب الدينية الفرنسية الثمانية التي استنزفت موارد البلاد وبدلت ملامحها السياسية والاجتماعية لأكثر من ثلاثين عاماً، إذ انتقل الصراع من الجدل اللاهوتي في الغرف المغلقة إلى ساحات القتال الدامية في المدن والقرى الفرنسية(يحيى، ١٩٨١، ص١١٩).

ثانيا: آثار المذبحة على الطائفتين

تختلف تقديرات عدد الضحايا؛ فبينما تشير بعض المصادر إلى ٥٠–٦٣ قتيلًا، يرى آخرون أن العدد قد يصل إلى نحو ٨٠–١٠٠ قتيل وأكثر من المئات من الجرحى(فولتير، ٢٠٠٩، ص٢٧) هذا التفاوت يعكس صعوبة توثيق الأحداث في المناطق الريفية خلال القرن السادس عشر، لكنه يوضح حجم الكارثة وتأثيرها المباشر على الوعي الطائفي للهوجوينوت. فقد اعتبر الهوجوينوت المذبحة إشارة على تهديد وجودهم الديني والاجتماعي، وأصبحت دافعًا لهم لتوحيد صفوفهم واللجوء إلى التسليح، ما مثل بداية اندلا ع الحرب الدينية الأولى (Calendarz, ٢٠٢٤ ; Holt, ١٩٩٥, p.٥٦ ; Benedict, ٢٠٢٤, p.١٦) من الجانب الكاثوليكي، شعر النبلاء بالتفوق والقدرة على فرض سلطتهم الإقليمية بالقوة، ما عزز النزعة العدائية تجاه البروتستانت، وجعل أي حوار ديني مستقبلي أكثر تعقيدًا (Deng, ٢٠٢٤, p.٢٨) .

شكلت مذبحة فاسي الشرارة التي أدت إلى الحرب الدينية الأولى (١٥٦٢–١٥٦٣)، إذ بدأ الهوجوينوت بتسليح قواتهم، وأدى اندلا ع المعارك الأولى مثل حصار أورليان (Siege of Orléans) (واقعة عسكرية هامة خلال حروب فرنسا الدينية عام ١٥٦٣، حيث حاصر الكاثوليك بقيادة «دو غيز» المدينة البروتستانتية، وانتهى الحصار باغتيال «دو غيز» وصدور مرسوم أمبواز. ينظر: (شلبي، ١٩٩٢، ص٦٧)) ومعركة درو (Battle of Dreux) (أول معركة في عام ١٥٦٢، جمعت بين القوات الكاثوليكية والبروتستانتية، وانتهت بانتصار صعب للكاثوليك وأسر قادة الطرفين. ينظر: (حافظ، ١٩٩٥، ص١٥٤))، إلى تفاقم الصراع. وقد لعبت مذبحة فاسي دورًا رمزيًا في تحفيز الطائفة البروتستانتية على توحيد صفوفها تحت قيادة أمراء مثل لويس أمير كوندي (Louis, Prince of Condé) (أحد كبار أمراء الدم في فرنسا وقائد القوات البروتستانتية (الهوغونوت) في بدايات الحروب الدينية، قُتل في معركة جارناك عام ١٥٦٩. ينظر: (بدوي، ١٩٨٤، ص٣١١)) (Holt, ١٩٩٥, p.٧٨; Benedict, ٢٠٢٤, p.٢٨)

بعد المذبحة، اضطرت كاثرين إلى تكييف سياساتها لتفادي انهيار الدولة، إذ حاولت استخدام التهدئة والمواثيق القانونية لتقييد النزاع، لكنها واجهت تحديات شديدة في تطبيق هذه السياسات على أرض الواقع بسبب تمرد النبلاء واستمرار الصراع الديني (الجزيرة نت، ٢٠٢٢، ص٩–١٢؛ الشليح، ٢٠١٩، ص٤٥).

ظهرت العديد من الرسوم والنقوش التاريخية التي صورّت الحدث بشكل درامي، وزُرعت في مراكز الإصلاح البروتستانتي في أوروبا، مثل جنيف، لتخليد ذكرى الهوجوينوت الذين فقدوا حياتهم. كما ساعدت هذه الصور على نقل الحدث إلى أوروبا والعالم المسيحي كمثال على الظلم والاضطهاد، وبالتالي تأثيره على تشكيل الوعي الديني والسياسي للبروتستانت (Commons Wikimedia, MSK Gent, ٢٠٢٤) وقد اعتبرت الدراسات العربية أن هذه الذاكرة التاريخية ساهمت في تكوين سرد جماعي للطائفة البروتستانتية حول الحروب الدينية في فرنسا (مطر، ٢٠١٧، ص. ١٨–٢٠).

يصف ويل ديورانت مشهد مذبحة فاسي كواحد من أكثر المشاهد مأساوية في تاريخ الإصلاح الديني بفرنسا، إذ يذكر أن التعصب الديني قد بلغ ذروته في ذلك الصباح من شهر مارس. فقد اقتحم رجال دوق غيز الحظيرة التي كان البروتستانت يجتمعون فيها، ولم يفرقوا بين رجل أو امرأة أو طفل، بل انهالوا عليهم بالسيوف والرصاص وهم يرددون صيحات دينية عدائية. يحلل ديورانت الموقف موضحاً أن الدوق غيز ادعى لاحقاً أن المذبحة لم تكن مدبرة وأنها بدأت نتيجة رشق جنوده بالحجارة، إلا أن حجم القتل ونوعية الضحايا العزل دحضت هذه التبريرات أمام التاريخ. كانت فاسي بمثابة نقطة التحول التي نقلت «الهيغونت» من خانة الجماعة الدينية المضطهدة التي تطلب الرحمة، إلى خانة القوة العسكرية المنظمة التي تسعى للحصول على حقوقها بحد السيف. لقد أدرك البروتستانت بعد هذه الواقعة أن البقاء في فرنسا يتطلب تنظيماً عسكرياً وتحالفات دولية، وهو ما أدى بدوره إلى تدويل الصراع الفرنسي الداخلي. ويؤكد ديورانت أن صدى صرخات الضحايا في فاسي تردد في أرجاء أوروبا كلها، وأثار حفيظة إنجلترا وألمانيا، مما جعل من قضية الهيغونت قضية بروتستانتية عالمية (ديورانت، ١٩٨٨، ص٣٤٧–٣٤٨)، (حرية ممارسة الطقوس والعادات) هذا ما كان يطالب به البروتستنانت، من هذا المنطلق عد الفيلسوف الفرنسي وأحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث أميل دور كايم (Emil Dor Kaym) الدين المسيحي إنه « مؤسسة إجتماعية قوامها التفريق بين المقدس وغير المقدس ولها جانبان أحدهما روحي مؤلف من العقائد والمشاعر الوجدانية والآخر مادي مؤلف من الطقوس والعادات»(خلف, علي داود العدد ٥٠، ٢٠٢٤)، كذلك الفيلسوف الإنجليزي راد كليف براون (Radcliffe Brown) ذكر إنه «إهتمام ينصب على

كيف تؤدي هذه الطقوس ووظائفها في إثارة وتهدئة القلق بمجرد إقامتها .....الشعائر ليست ردود فعل لمواقف الخطر، ولكنها إنجازات لتوكيد التنظيم الديني» (المعايطة وخلف، العدد ٤٨، ٢٠٢٤).

يرى فشر ان مذبحة فاسي كانت اللحظة الحاسمة التي قوضت سلطة التاج الفرنسي وجعلت من قادة الطوائف الدينية أقوى من الملك نفسه. فعندما أقدم دوق غيز على ذبح الهيغونت في فاسي، لم يكن يضرب جماعة دينية فحسب، بل كان يتحدى سلطة الملكة الأم كاترين دي ميديجي التي كانت تحاول جاهدة الحفاظ على سلم أهلي هش. إن هذه الواقعة أثبتت أن القوة العسكرية في فرنسا أصبحت بيد الإقطاعيين الكبار والزعماء الدينيين الذين استغلوا الحماس الطائفي لتحقيق مآرب سياسية وسلطوية. لقد ترتب على هذه المذبحة هروب قادة البروتستانت من باريس وتنظيم صفوفهم في المناطق التي يسيطرون عليها، مما قسم فرنسا فعلياً إلى دولتين داخل دولة واحدة؛ دولة كاثوليكية في الشمال والمركز ودولة بروتستانتية في الجنوب والغرب. ويشير فيشر إلى أن أهمية فاسي تكمن في أنها أنهت عصر «الوفاق الديني» القصير الذي بشر به مصلحون مثل «لوريال»، وفتحت الباب على مصراعيه لتدخل القوى الخارجية مثل إسبانيا التي دعمت الكاثوليك، وإنجلترا التي دعمت البروتستانت. وهكذا أصبحت فاسي هي الرمز التاريخي لبداية عهد الحرائق والخراب الذي لم ينتهِ إلا بصدور مرسوم نانت في نهاية القرن، وبعد أن دفع الشعب الفرنسي ثمناً باهظاً من أمنه واستقراره(فيشر، ١٩٩٢، ص ٢٤٢ – ٢٤٣)، هذه المذبحة ورطت فرنسا في ثلاثة عقود ونصف العقد من الحروب الدينية المتكررة (دونيلي، ٢٠٢٥، ص٩٣؛ فولتير، ٢٠٠٩، ص٢٧).

المحور الثالث: دور كاثرين دي ميديتشي في المذبحة وما بعدها

إن الهجوم كان يعكس كيف أن النبلاء الكاثوليك المتشددين كانوا مستعدين للتصرف خارج حدود القانون الملكي لتحقيق مصالحهم الدينية والسياسية، ما جعل تنفيذ أي سياسة وسطية صعبًا على كاثرين دي ميديتشي (Benedict, ٢٠٢٤, p.١٤-١٦).

حاولت كاترين دي ميديتشي التعامل مع الأزمة بعد المذبحة بحذر شديد، إذ تبنت سياسة الوسط والاحتواء. حاولت كاثرين الحفاظ على وحدة الدولة من خلال إصدار تعليمات ملكية محدودة للهوجوينوت، مثل السماح لهم بالصلاة خارج المدن الكبرى، لكنها لم تمنحهم حقوقًا متساوية مع الكاثوليك في المدن، وهو ما أدى إلى استمرار الاحتقان. ويشير الباحثون إلى أن هذه السياسات، رغم حسن نيتها، كانت ضعيفة أمام نفوذ النبلاء المتشددين، الذين لم يترددوا في تحدي السلطة الملكيةHolt, ١٩٩٥, p٥٧-٦٩) ؛ الشليح، ٢٠١٩، ص٤٠ .(

فبعد وقوع المذبحة، حاولت كاثرين تهدئة الوضع عبر التوسط بين الأطراف. وجهت أوامر للحفاظ على النظام ومنع الانتقام المتبادل، لكنها واجهت صعوبة بالغة، إذ أن النبلاء الكاثوليك أرادوا معاقبة الهوجوينوت على ما حدث، بينما سعى الهوجوينوت للرد على المذبحة المسلحة، وهو ما أظهر حدود قدرة السلطة المركزية على التحكم في النزاع الطائفي Benedict, ٢٠٢٤, p.١٩)؛ (Deng, ٢٠٢٤, p.٣٢ وقد اعتبر المؤرخون العرب أن سياسة كاثرين الوسطية كانت محاولة لإدارة الصراع بعيدًا عن الحرب المفتوحة، لكنها لم تمنع اندلا ع الحرب الدينية، ما يؤكد محدودية نفوذ الملكة الأم أمام النبلاء المحليين (مطر، ٢٠١٧، ص ١٥–١٨).

تُظهر دراسة المؤرخين أن كاثرين دي ميديتشي حاولت تجنب الحرب الأهلية المباشرة عبر استخدام مبدأ التوازن، لكنها فشلت في السيطرة على الأحداث يوضح الباحثون أن مزيجًا من ضعف السلطة الملكية، ونفوذ النبلاء، وانتشار الفكر البروتستانتي أدى إلى تصعيد الصراع الديني بشكل غير قابل للإيقاف بعد مذبحة فاسي Holt, ١٩٩٥, p.٥٧) ؛

السنوسي، ٢٠١٣، ص ٩–١٠).

لم تكن مذبحة فاسي مجرد حادثة عارضة في سجل التاريخ الفرنسي، بل كانت بمثابة إعلان رسمي عن فشل سياسة التسامح الديني التي حاولت كاترين دي ميديجي إرساءها عبر مرسوم يناير(Edict of January)، المرسوم الذي يمنح الهوغونوت حرية عبادة محدودة خارج أسوار المدن، وكان محاولة لتهدئة النزاع لكنه قوبل برفض كاثوليكي عنيف(حسن، ٢٠٠٣، ١١٥؛ يحيى، ١٩٨١، ص١١٩).

الخاتمة:

• تُعد مذبحة فاسي ١٥٦٢ حدثًا محوريًا في التاريخ الفرنسي، إذ لم تكن مجرد صراع محلي بين النبلاء والكاثوليك والهوجوينوت، بل انعكاسًا لتوترات دينية وسياسية مركبة عانت منها فرنسا منذ انتشار الإصلاح البروتستانتي. أظهرت المذبحة مدى ضعف السلطة الملكية أمام نفوذ النبلاء المحليين، وأكدت أن النزاعات الدينية في فرنسا لم تكن مجرد مسائل عقائدية، بل كانت مرتبطة بالسيطرة السياسية والاجتماعية على الأراضي والمدن.

• لقد لعبت كاترين دي ميديتشي دورًا مركزيًا في محاولة احتواء النزاع، إذ سعت من خلال سياسات الوسط والاعتدال إلى تحقيق توازن بين الطوائف، لكنها واجهت صعوبات بالغة أمام النبلاء الكاثوليك المتشددين والهوجوينوت المسلحين. ورغم حسن نية الملكة الأم، فإن محدودية سلطتها أسهمت في تصاعد الأحداث واندلا ع الحرب الدينية الأولى.

• توضح دراسة هذه المذبحة أن الصراع الديني في فرنسا لم يكن لحظيًا، بل كان نتاج تراكم طويل من العوامل الدينية والسياسية والاجتماعية، وأن إدارة الصراعات الطائفية تتطلب قوة مركزية قادرة على فرض القانون على جميع الأطراف. كما يظهر من خلال تحليل دور كاثرين دي ميديتشي أن السياسات الوسطية، وإن كانت ضرورية للحفاظ على الدولة، قد تكون محدودة الفعالية إذا لم تصاحبها أدوات تنفيذ قوية وتفهم دقيق للنفوذ المحلي.

• في الختام، يمكن القول إن مذبحة فاسي شكلت نقطة تحول تاريخية هامة، إذ فتحت الباب لسلسلة طويلة من الحروب الدينية في فرنسا وأوروبا، كما أسهمت في تشكيل الوعي الطائفي والهوياتي لكل من الكاثوليك والهوجوينوت، ووضعت أسس الصراع الاجتماعي والسياسي الذي استمر لأكثر من ثلاثة عقود.

المصادر والمراجع:

– المصادر العربية والمعربة:

١. برنتون. كرين. (١٩٨٤). تشكيل العقل الحديث. ترجمة: شوقي جلال. الكويت: عالم المعرفة.
٢. حسن. محمد إبراهيم. (٢٠٠٣). تاريخ أوروبا السياسي. القاهرة: دار الآفاق العربية.
٣. دونيلي، جاك. (٢٠٢٥). حقوق الإنسان العمومية في النظرية والتطبيق. ط٣. لبنان: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
٤. زيتون. محمد محمد. (١٩٨٢). تاريخ أوروبا الحديثة وعصر النهضة. بيروت: دار النهضة العربية.
٥. سترومبرج. رولاند. (١٩٩٤). تاريخ الفكر الأوروبي الحديث. ترجمة: أحمد الشيباني. القاهرة: دار القارئ العربي.
٦. السعدون. خالد. (٢٠٠٩). تاريخ أوروبا الحديث. العين: دار الكتاب الجامعي.
٧. السنوسي، محمد. (٢٠١٣). الحروب الدينية في أوروبا على مشارف العصر الحديث. مجلة البوابة الثقافية.
٨. شلبي. خيري. (١٩٩٢). الحروب الدينية في أوروبا. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
٩. الطيبي. محمد. (٢٠١١). تاريخ فرنسا الحديث. ط١. عمّان: دار الشروق.
١٠. العلي. جلال. (٢٠٠١). تاريخ أوروبا في عصر النهضة والإصلاح. دمشق: دار الفكر للنشر.
١١. فولتير. (٢٠٠٩). رسالة في التسامح. ترجمة: هنريت عبودي. ط١. دمشق: دار بترا للنشر والتوزيع.
١٢. فيشر، هيربرت ألبرت لورنس (١٩٩٢). تاريخ أوروبا الحديث. ترجمة: أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع. ط١٠. القاهرة: دار المعارف

للطباعة والنشر. ج١.
١٣. كوبر. لويس. (١٩٩٨). قصة الإصلاح. ترجمة: عبد المجيد الشهاوي. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
١٤. كين. موريس. (٢٠٠٧). تاريخ الحرب في العصور الوسطى. ترجمة: سامي هاشم. القاهرة: دار الثقافة.
١٥. ماورو. أندريه. (١٩٦٦). تاريخ إنجلترا. ترجمة: خيري حماد. بيروت: المكتبة الأهلية.
١٦. محمود. جمال كمال. (٢٠٠٥). تاريخ أوروبا الحديث. الإسكندرية: المكتبة الجامعية.
١٧. مورتون. أ. ل. (١٩٧٠). تاريخ إنجلترا. ترجمة: نظمي لوقا. بيروت: دار الرائد العربي.
١٨. ميلر. أندرو. (٢٠٠٤). تاريخ الكنيسة. ج٣. القاهرة: مكتبة الإخوة.
١٩. نوار. عبد العزيز. (١٩٩٩). تاريخ أوروبا الحديث. بيروت: دار النهضة العربية.
٢٠. يحيى، جلال. (١٩٨١). تاريخ أوروبا في العصر الحديث: من عصر النهضة إلى الحرب العالمية الأولى. الإسكندرية: دار المعارف.

– الرسائل والاطاريح:

١. مطر، حيدر عبد الحسن. (٢٠١٧). حركة الإصلاح البروتستانتي (لوثر، زونجلي، كالفن). رسالة ماجستير (غير منشورة). جامعة كربلاء. كلية التربية.
٢. الشليح، ميسا. (٢٠١٩). نشوء البروتستانتية وأثرها في الحروب الدينية في أوروبا (١٥٦٢–١٥٩٨). رسالة ماجستير. الجامعة اللبنانية. كلية الآداب والعلوم الإنسانية.

– الموسوعات:

١. بدوي. عبد الرحمن. (١٩٨٤). موسوعة أعلام الفلسفة والسياسة. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات.
٢. ديورانت، ويل. (١٩٨٨). قصة الحضارة : عصر الإصلاح. ترجمة: بيروت: دار الجيل للنشر والطباعة والتوزيع. ج٣٠.

– الشبكة المعلوماتية (الانترنيت):

١. الجزيرة نت. (مايو ٢٠٢٢). الحرب الدينية الفرنسية. (https://www.aljazeera.net).
٢. العبد الله، مصطفى. (٢٠٢٢). الموسوعة العربية «الحروب الدينية ١٥٦٢–١٥٨٩». دمشق: هيئة الموسوعة العربية. (https://www.arab-ency.com.sy).

– المجلات:

١. خلف ، علي داود. (٢٠٢٤). «التفسيرات الغربية لنشأة الدين في حياة الشعوب والرد عليها (نظرية تطور الدين إنموذجا)» . مجلة الإمام الأعظم الجامعة. العدد ٥٠. العراق.
٢. المعايطة، قيس سالم و خلف ، علي داود خلف. (٢٠٢٤). «إشكالية العلاقة بين الثقافة والدين عند علماء الغرب المعاصرين» . مجلة الإمام الأعظم الجامعة. العدد ٤٨. العراق.

– المصادر الاجنبية:

1. Benedict, P. (1991). Rouen During the Wars of Religion. Cambridge University Press.
2. Benedict, P. (2024). Le Massacre de Wassy: Contribution à La France vue d'ailleurs.
3. Britannica. (2024). Massacre of Vassy.
4. Calendarz. (2024). Wassi Massacre – March 1, 1562.
5. Cameron, E. (2012). The European Reformation. Oxford University Press.
6. Deng, Y. (2024). The Massacre at Wassy in 1562 and the Origins of the French Religious Wars [Unpublished doctoral dissertation, University of Chicago.
7. Holt, M. (2005). The French Wars of Religion, 1562–1629. Cambridge University

Press.
8. Holt, M. P. (1995). The French Wars of Religion, 1562–1629. Cambridge University Press.
9. Jouanna, A. (2013). The St Bartholomew's Day Massacre: The Mysteries of a Crime of State. Manchester University Press.
10. Knecht, R. J. (2002). The French Religious Wars 1562–1598. Routledge.
11. Musée Protestant. (2024). The Protestant Museum in the Wassy Barn.
12. Salmon, J. H. M. (1975). Society in Crisis: France in the Sixteenth Century. Methuen.
13. Wikimedia Commons. (2024). The Massacre of Vassy

List of Sources and References:

– Arabic and Arabized Sources:

1. Brinton, Crane. (1984). The Shaping of the Modern Mind. Translated by: Shawqi Jalal. Kuwait: World of Knowledge.
2. Hassan, Muhammad Ibrahim. (2003). Political History of Europe. Cairo: Dar Al–Afaq Al–Arabiya.
3. Donnelly, Jack. (2025). Universal Human Rights in Theory and Practice. 3rd ed. Lebanon: Arab Center for Research and Policy Studies.
4. Zaytoun, Muhammad Muhammad. (1982). History of Modern Europe and the Re–naissance. Beirut: Dar Al–Nahda Al–Arabiya.
5. Stromberg, Roland. (1994). History of Modern European Thought. Translated by: Ahmad Al–Shaibani. Cairo: Dar Al–Qari' Al–Arabi.
6. Al–Saadoun, Khalid. (2009). History of Modern Europe. Al Ain: University Book House.
7. Al–Senussi, Muhammad. (2013). Religious Wars in Europe on the Threshold of the Modern Age. Al–Bawaba Al–Thaqafiya Journal.
8. Shalabi, Khairy. (1992). Religious Wars in Europe. Beirut: Arab Institution for Stud–ies and Publishing.
9. Al–Taybi, Muhammad. (2011). Modern History of France. 1st ed. Amman: Dar Al–Shorouk.
10. Al–Ali, Jalal. (2001). History of Europe in the Age of the Renaissance and Reforma–tion. Damascus: Dar Al–Fikr for Publishing.
11. Voltaire. (2009). A Treatise on Tolerance. Translated by: Henriette Abboudi. 1st ed. Damascus: Dar Petra for Publishing and Distribution.
12. Fisher, Herbert Albert Laurens. (1992). History of Modern Europe. Translated by: Ahmad Najib Hashim and Wadi' Al–Dab'. 10th ed. Cairo: Dar Al–Ma'arif for Print–ing and Publishing. Vol. 1.

13. Cooper, Louis. (1998). The Story of the Reformation. Translated by: Abdel Majid Al-Shahawi. Cairo: The Egyptian General Book Authority.
14. Keegan, Maurice. (2007). History of Warfare in the Middle Ages. Translated by: Sami Hashim. Cairo: Dar Al-Thaqafa.
15. Maurois, André. (1966). History of England. Translated by: Khairy Hammad. Beirut: Al-Maktaba Al-Ahliya.
16. Mahmoud, Jamal Kamal. (2005). History of Modern Europe. Alexandria: The University Library.
17. Morton, A. L. (1970). History of England. Translated by: Nazmi Luqa. Beirut: Dar Al-Ra'id Al-Arabi.
18. Miller, Andrew. (2004). History of the Church. Vol. 3. Cairo: Al-Ikhwa Library.
19. Nawwar, Abdul Aziz. (1999). History of Modern Europe. Beirut: Dar Al-Nahda Al-Arabiya.
20. Yahya, Jalal. (1981). History of Europe in the Modern Age: From the Renaissance to the First World War. Alexandria: Dar Al-Ma'arif.

– Theses and Dissertations:

1. Matar, Haidar Abdul Hassan. (2017). The Protestant Reformation Movement (Luther, Zwingli, Calvin). Master's Thesis (unpublished). University of Karbala, College of Education.

Its Impact on Religious Wars in Europe (1562–1598). Master's Thesis. Lebanese University, Faculty of Arts and Human Sciences.

– Encyclopedias:

1. Badawi, Abdul Rahman. (1984). Encyclopedia of Notable Figures in Philosophy and Politics. Beirut: Arab Institution for Studies.
2. Durant, Will. (1988). The Story of Civilization: The Age of Reformation. Translated by: Beirut: Dar Al-Jeel for Publishing, Printing, and Distribution. Vol. 30.

Information Network (Internet):

1. Al Jazeera Net. (May 2022). The French Religious War. (https://www.aljazeera.net).
2. Al-Abdullah, Mustafa. (2022). The Arab Encyclopedia "Religious Wars 1562–1589". Damascus: Arab Encyclopedia Authority. (https://www.arab-ency.com.sy).

– Magazines:

1. Al-Janabi, Ali Daoud Khalaf. (2024). "Western interpretations of the emergence of religion in the lives of peoples and the response to them (the theory of the development of religion as a model)." Al-Imam Al-A›zam University Magazine. Issue 50. Iraq.
2. Al-Maaytah, Qais Salem and Al-Janabi, Ali Daoud Khalaf. (2024). "The problem of the relationship between culture and religion among contemporary Western scholars." Al-Imam Al-A›zam University Magazine. Issue 48. Iraq.